معرض معاذ الالوسي يؤنسن وحشية اللون

وجوه معذّبة ولا مبالية على جدار الغربة

منى سلطان

يطل الرسام والمعماري العراقي معاذ الألوسي (من مواليد بغداد العام ١٩٣٨) في معرضه الجديد الذي يقيمه في "غاليري ايبروف دارتيست" في بيروت، حاملاً معه كل مشاعر الغربة في حقيبة. والحقيبة هي ذاكرة وطن معذب وهي رمز السفر والانتظار. واذا كانت الحياة في الغربة هي العيش مع وقائع مؤجلة، فإن مرايا تلك الحياة اليومية لا بد أن تعكس وجوماً. ووجوه الألوسي معذبة ودامعة ومتكدرة، او ضاحكة وسافرة ولامبالية. وهي بلا ملامح تعرف بما او تميزها الا بحسب موضوعها ومقامها في التعبير، لأنها تستمد وجودها من كيان الفنان واعماقه المؤججة، فضلاً عن اسلوبه في المعالجة التقنية.

طوطم.

غربة.

الفن يستدرج الألوسي للبوح. لكنه بوح يعتوره الغموض والقلق والفوضى والتوتر. وذلك رغم قوة الخطوط وبيانها. فإن تأويل القرابة التي تجمع الوجوه بعضها الى بعض، ومن ثم الى حقائب السفر وهياكل المدينة الخاوية وأجنحة الحمائم البيض، تظل متروكة للناظر الذي يبصرها على ضوء مشاعره وتجاربه. وكذلك تفسير انواع العلاقات التي تربط بين الاشارات والرموز. فالتشخيص يغشاه شيء من الوهم، والتساؤل يحيل على مفردات متناثرة، والادراك يقابله اللاوعي. هكذا تعيش الرؤوس تحولاتها المأسوية وهي مغطاة بالجروح. من وجه الى وجه تكبر الصرخة. ومن مربع الى آخر لغة تبني حجارتها كفسيفساء بصرية فطرية في نكهتها التشكيلية، ولكنها تنطوي على قسوة الألم وضراوته.

لذلك نجد لغة الوحشيين في تعاطي الألوسي مع الالوان الاساسية، كالاحمر والازرق والاصفر. اما الاسود فذو اهمية بالغة في التصوير. يرسم به الهيئات والاشكال وهيكلية العناصر ويأسر داخل قضبانه الاشارات والرموز، ويلوّن به الدكنة ويقتل به صراخ الاحمر وفجاجة الاصفر ولوعته، الآخذة في التضاؤل مع الاخضر، وبين خصام وانسجام تظهر اهمية الالوان الترابية التي تتصالح الاشياء في تدرجاتها العميقة.

في ٦١ لوحة غالبيتها من الحجم الصغير (أكريليك على ورق وعلى قماش)، يخرج الألوسي احياناً عن طور المربع، لكنه يحافظ عليه كوحدة قابلة للتكرار. لأن مجموع المربعات هو الذي سوف يصنع المساحة الكلية، ويكفل ترابط جزئيات الموضوع لدى رؤيتها عن بعد. والمربع ايضاً هو المكان الحميم والمغلق، الذي يودعه الفنان كل رسم تصويري انساني او حيواني وما يضاف اليهما من طلاسم ورموز. لا تلبث تلك العناصر ان تتحاور على قماشة يتألف سطحها من رمل ونثار خشب وغراء، هي اقرب ما تكون الى الجدار في طبيعة ملمسه ووظيفته الجمالية. واهمية الملمس انه ينقل العالم المحسوس، ربما غير المُدرك كلياً، الى مساره العاطفي – الاسترجاعي، ويعطي اللوحة مظاهرها اللونية المتميزة ومناخاتها السحرية والاسطورية التي تبدو كأنها آتية من ازمنة غابرة.

الاستعارات المجازية للاشكال الطوطمية والانسانية والحيوانية، مستوحاة من الانتماء الى تراث بلاد ما بين النهرين وحضارات الشرق الادنى القديم. لكن الألوسي يستعيد الممارسة الغريزية للفن ليتجرأ على الخوف وينتصر للذات.

ومعاذ الألوسي يعيش بين ماضٍ وحاضر، وتراث وحداثة، يجد الفنانين في اوروبا لا سيما في المانيا، يعلّقون دراجاتهم الهوائية في أجنحة المتاحف على انها أنصاب حديثة. استهوته فكرة الانخراط في تلك الافكار التي تنظر الى تلك الاشكال الجامدة نظرة تحمل نزعات انسانية حية وراهنة. لأن الدراجة كوسيلة بدائية، بات الغرب يستعيدها لفوائد البيئة الصحية والرياضة والمسافات القصيرة، ولأنها رمز عودة الغلبة للانسان مع تقدم الآلة وطغيانها. ذلك لا يمنع ان تجسد الذكريات الحميمة وأحلام النزهات.

أما الألوسي فقد أنسن موضوع الدراجة، جعلها "لغة احتجاج واعتراض"، على ما يقول، وهو لم ينظر اليها كشكل هندسي من دوائر وأقواس وخطوط فحسب، بل ككائن معذّب وهامشي ووحيد لكنه حاضر بقوة. لذا تظهر الدراجة مثل الوجه، ملطّخة بدمائها وغارقة في وحشتها لا تلوي على شيء.

يستحضر الألوسي في معرضه، اكثر من موضوع، كالموسيقيين والدراجة والحقيبة وحمائم السلام والمهرج. لكنها موضوعات لا يربط بعضها ببعض اي صلة، سوى الاسلوب والمعالجة اللونية والتقنية. كأن الفنان يعيش حالات متنوعة ومشاعر متناقضة، يسردها ويرويها. أحياناً يقسّم سطح اللوحة حقولاً أفقية، لتزرعها الريشة وتحصدها بالاشكال والرموز كمن يرسم على ظاهر إناء، او يستلهم سياق المربعات. لذلك يبني جداراً، طبقة إثر طبقة ولوناً عقب لون، من وجوه وكسور اشياء مهملة وهامشية وغير مترابطة كأنها بلا جدوى. هكذا يتبدى الجدار، مثل يوميات مهاجر مثقل بالألم ومطعون بالذكريات. وهو هازئ وعابث في آن واحد. شرقي ومستغرب، حنون ومتوحش لكنه وحيد بالتأكيد ■

المطهر البشري.

وبلاغة التعبير الاختزالي. كأن ثمة مزاجا خاصا يحوط عالم ماضي بمناخات دافئة وحميمة تستريح لها العين.

يعزف ماضي على اوتار خطوط جسد العارية ويجعلها سابحة في فضاء احادي اللون، تارة يكون حارا ومرارا باردا ليشع بياضه من الداخل او اسمراره الحارق. ولكنه يلجأ الى لعبة الالوان وانكسارات السطوح واختزالات الخطوط حين يجسد موضوع العاريات المستحمات على الشاطئ وجلسات النسوة وحوارات الوجوه، فتظهر اكثر التعابير المستقرة والمتحركة مع سلطة الاضواء اللونية واستراحة الظلال.

الصرامة والارتجال

في معرضه الجديد، يقطف ماضي عطر الاشكال لحل معضلة بناء فضاء جديد لأعماله. بناء يقوم على تجليات الدمج بين الصرامة والارتجال، بين الوحدات المندسية العقلانية الباردة وحرارة الزيوح والتخطيطات العفوية التلقائية، في محاولات مستمرة لايجاد حالة التوازن الخفي بين الاستقرار والحركة، وصولا الى تناغم شعري وتكامل عضوي بين الوحدة والاجزاء والمساحات اللونية والزخارف.

لمنظور الخطي

يطفى المنظور الخطي على حركة التأليف، الذي ينطلق غالبا من حالات المواجهة او من الزاوية الجانبية. لذلك تبدو لغته التشكيلية حميمة وصريحة، كأنها آتية من تأملاته لمشهد الافق الممتد على مساحة شرفة محترفه المطلة على حدائق الجامعة الاميركية وبحر بيروت.

ويظهر هذا المنظر في اكثر من لوحة ليعكس العلاقة بين الداخل والخارج، سحر المكان ومحيط العيش، وهذا يوحي الطمأنينة، وخصوصا حضور الايقاع السكوني العابر للحظات الشروق.

تسيطر الآفاق اللونية الزرقاء المتنوعة الدرجة والنبرة على مساحات لوحاته، يجعلها ماضي مساحات مريحة تشكل خلفيات مناسبة احيانا للطبيعة الصامتة، ولاسيما لوحات زهور دوار الشمس، التي يعالجها بواقعية جديدة تعكس سكونية الالوان الزرقاء والبنفسجية وبرودتها وحرارة القماشة الزخرفية للآنية والفطاء وحركة امتشاق الازهار وسطوعها الذهبي. اللافت ان حسين ماضي يدخل في لوحاته تفاصيل من اشكاله الخطية فتتحول زخارف تزين الاواني والصحون والاقمشة والارائك. كأنه ما زال يحلم باستعادة تلك الرحم التي فقدها حين ترك محترفه في روما، ولم ينقطع حنينه اليه.

استلهام الموديل

يجمع فن حسين ماضي في ارتداده الى الداخل الحميم والى الزوايا الاليفة لتفاصيل العيش، بين قوة الرسم ومتانة التصميم لتأكيد اهمية العودة الى استلهام النموذج الحي. فهو في مجمل لوحاته الجديدة لم يبحث عن مواضيعه بل يجدها كلما تحاورت عيناه مع تقاسيم الاشكال والالوان وايماءات الظلال الملونة. لذلك يرسم وجه الموديل وجسدها ليعبر عن مدى اهمية المكان بالنسبة الى المرأة الشرقية، التي تبدو في حالات قيلولتها واستراحتها وجلوسها واستلقائها اشبه بقصيدة تشع من الداخل كايقاع ديناميكي لمعزوفة الحياة.

وتطل المرأة في مواضيع متخيلة كأسطورة "اوروب"، التي شيدت اكثر من حضارة ومجدت في فصول خطفها على ظهر الثور حكايات الحب والشهوة.

واهمية حسين ماضي لا تنحصر في كونه رساما وملونا بارعا، بل في مزاولته النحت على الحديد المطوي، الذي يعالجه في ابعاده بالمنطق الهندسي والاختزالي ذاته الذي يعالج به لوحاته. الا ان النحت يكشف اكثر الاسرار الابداعية للعبة العمل التشكيلي. فالخطوط السوداء التي ترسم حركة الجسد تظهر في النحت عارية الا من ملامحها الانسيابية – التشييدية ومن الفضاء الكلي للعمل النحتي، الذي يعكس اكثر مفاصل الحركة ونقاط ارتكازها وليونتها وقوتها وصرامتها.

في معرضه الجديد يظهر حسين ماضي اكثر انحيازا الى الواقع والى بلاغة الاختزال والتبسيط كما لو انه يستعيد حوار الحضارات التي سادت مرحلة الحداثة ليجعلها من الثوابت والتحولات في اسلوبه السائر الى مزيد من النضج والابتكار والتجدد، وهي من سمات المبدعين الكبار ■